هشام علي بن علي
كاتب، نائب رئيس إتحاد الأدباء و الكتاب اليمنيين (سابقاً)
صنعاء، صحيفة الثورة، الملحق الثقافي، 1995/7/28م

## سلطان ناجي: التاريخ الذي أثقل كاهلي

المؤرخ اليمن سلطان ناجي إسم بارز خلد إلى الصمت، صمت الكتابة، صمت الشهادة التاريخية قبل أن يدخل في صمت أبدي.

الذين عرفوا سلطان ناجي يستطيعون أن يتذكروا كم كان نشيطاً و فاعلاً .فلقد كان من أوائل الطلبة اليمنيين الذين ذهبوا للدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت، حيث درس التاريخ لإحساسه بأهمية هذا العلم و الحاجة إليه لا سيما و اليمن تبحث عن موقع في التاريخ .

و حين عاد إلى عدن في أواخر الخمسينات، أنشأ مع مجموعة من الخريجين الجامعيين مجلة أسموها " دراسات" محاولين بذلك الإسهام في الحياة الثقافية . و عند تأسيس إتحاد الأدباء و الكتاب اليمنيين ، كان من أوائل الأدباء المؤسسين للإتحاد . و لدى إنشاء كلية التربية العليا في عدن، كان من أوائل المساهمين في هذه الكلية التي أصبحت نواة لجامعة عدن .

من هذا المسار نستطيع إكتشاف شخصية سلطان ناجي ، فمسار حياته يكشف بحثه المتجدد عن دور، لا غرابة في ذلك ، فأستاذ التاريخ الذي يقضي الأيام و الليالي يقلب صفحات التاريخ يعرف تماما أن من يدخلون كتاب التاريخ هم الذين يحاولون نقش أسمائهم على الجدران و فوق ألواح الخشب !

ربط سلطان ناجي عمله التاريخي و الفكري في محورين :

- تاريخ مدينة عدن
- تاريخ اليمن بمنظور وحدوي شامل

و قد مثل المحوّر الأول جانبا من نشاطه و إنتاجه الفكري. ذلك أنه قام بدراسة تاريخ مدينة عدن بشكل شمولي، التاريخ الحديث لهذه المدينة الذي يبدأ مع بدايات الإحتلال البريطاني لعدن، و قد قام بترجمة عدد من الكتب و الدراسات الإنجليزية التي نشرت عن عدن، كما درس التطور الإداري للمدينة، و يعتبر عمله هذا أساساً لدراسة كاملة عن عدن تحتاج إلى عملية تجميع ليضمها كتاب واحد، ذلك أن سلطان ناجي نشر مواد هذا المحور على مدى فترة زمنية طويلة و في عدد من الصحف و المجلات الأمر الذي أفقد هذه الدراسة أبعادها الشمولية التي كان سلطان ناجي يضعها في منهجه الخاص بكتابة تاريخ مدينة عدن ، و لكن الوقت لم يسعفه لجمعها في كتاب واحد و إكمال فقراتها الناقصة.

و بالمناسبة تظهر الحاجة الماسة لدراسة تاريخ مدينة عدن و تطورها الإجتماعي و الإداري و السياسي و الثقافي. فهذه المدينة بما عرفته من إستثناء تاريخي فرضته حقيقة كونها مستعمرة بريطانية، شهدت كافة سلبيات المجتمعات الكولونيالية، و رأت أيضا مظاهر التحدي التي يفرضها

التطور المتفاوت بين المركز و الأطراف على المستويات المتعددة من الإقتصاد إلى الثقافة، كما شهدت عملية تهجين إجتماعي و ثقافي فرضه الإستعمار من جهة و موقع مدينة عدن كميناء مهم في طريق الملاحة العالمية، كل هذه عوامل جعلت دراسة التطور التاريخي للمدينة مسالة ملحة و هو ما تنبه له الأستاذ سلطان ناجي في كتاباته التاريخية .

إلا أن ما ينبغي التأكيد عليه هو أن هذا ا لإهتمام بتاريخ مدينة عدن لم يكن يحمل أي إحساس بالفصل التاريخي عن تاريخ اليمن العام بل على العكس، لقد كان تاريخ المدينة يدرس ضمن إطاره العام و هو تاريخ اليمن ككل ، و هذا ما نبه إليه سلطان ناجي في مقدمة كتابه التاريخ العسكري لليمن، حيث يقول ( .. و ثمة خاصة أخرى من خصائص هذا الكتاب و هي أنني حاولت، بل بذلت أقصى الجهد لتأليفه تحت منظور وحدوي يشمل أرض اليمن الطبيعية عامة و لا يقتصر على يمن من عديد من " اليمنات" صنعتها في الماضي أنظمة حكم أجنبية و أشكال سلطات أسرية بحيث كنا نقرأ تواريخ لعدة يمنات و ليس ليمن واحد ..) .

و بمناسبة ذكر كتاب سلطان ناجي "التاريخ العسكري لليمن" الذي يعد أول كتاب يؤرخ للمؤسسة العسكرية في اليمن ، ينبغي الإشارة إلى أن الكتاب يقدم تاريخ اليمن خلال الفترة 1839م – 1967م ، و كما يلاحظ القارئ فإن هذه الفترة هي فترة الإحتلال البريطاني لجزء من اليمن، و هي فترة التغيرات الكبرى في تاريخ اليمن الحديث و المعاصر. فالوجود البريطاني في جنوب البلاد كان له تأثير في عموم اليمن، حيث أن إحتلال الجزيرة العربية و القرن الأفريقي، ولئن بقيت موانئ يمنية مهمة خارج السيطرة الإستعمارية، فإن ذلك كان ناتجاً عن تنازع المصالح الإستعمارية في هذا الطريق المائي المهم الذي عرف في الدراسات الإستراتيجية بطريق الهند، و قد ظهرت الموانئ اليمنية على الخرائط الإستعمارية كمواقع إستراتيجية، و أستطاعت بريطانيا في وقت مبكر السيطرة على عدن و بالتالي السيطرة على مجمل طريق الهند، خاصة بعد سيطرتها على مصر و قناة السويس .

و قد قام الأستاذ سلطان ناجي بدراسة تاريخ اليمن في هذه الفترة من هذا المنظور ، حيث رأى أن الإستعمار لم يكن إحتلال الأرض فقط، و لكنه كان عملية أكثر اتساعاً، مصالح و خطوط تجارية و مناطق نفوذ و غير ذلك، و كان لابد من دراسة اليمن في الفترة الإستعمارية دراسة شاملة .

النقطة الأخرى التي ينبغي التأكد عليها ، و هي شمولية الكتابة التاريخية لهذه الفترة و إن كان المبحث الرئيسي يتعلق بتاريخ المؤسسة العسكرية، و هو بهذا العمل يذكرنا بالكتاب المهم للمفكر المصري أنور عبد الملك الذي وضع كتاباً تحت عنوان " مصر مجتمع جديد يبنيه العسكريون " خلال الفترة الأولى من ثورة يوليو ، و قد كان كتاباً شاملا لتاريخ مصر الحديث و المعاصر ، تناول التغيرات السياسية و الإقتصادية و الإجتماعية و الثقافية من خلال الحديث عن علاقة الجيش بالسلطة في مصر . و قد كان سلطان ناجي موفقا في هذا الربط، حيث أصبح كتاب "التاريخ العسكري" من أهم المراجع عن تاريخ اليمن الحديث .

في الختام، أود الإشارة إلى الأزمة الفكرية التي عاشها سلطان ناجي في السنوات الأخيرة من عمره، فمحاولة العيش بمنطق التاريخ، و محاولة الرؤية بعيني المؤرخ، و التعامل مع الحياة السياسية و الفكرية بضمير المؤرخ، كل هذه عوامل دفعت به إلى الأزمة، ذلك أنه رأى إن الأمور تسير بصوره مخالفة لمنطق التاريخ، و بعد إنفجار أحداث 13 يناير تأكد له أن التاريخ اليمني يجب أن يصنع في اليمن، و إن المصائر التاريخية للشعوب لا يمكن أن تستورد مثل الملابس الجاهزة تماماً، كما أن التاريخ اليمني يجب أن يكتبه أبناؤه . و لأن غبار القتال غطى ص فاء العقل، أحس سلطان ناجي بحاجة للعزلة و التأمل، هكذا قضى الأشهر الأخيرة من حياته يتأمل مسار الأحداث ، إلا أن الموت فاجأه قبل أن يخرج من صمته، فمات و في قلبه و في عقله أشياء كثيرة كان يهم بقولها أو كتابتها، و لا نعرف إن كانت قد وجدت أوراق أو كتابات خطها في هذه الفترة !.

سؤال لأبناء المرحوم سلطان ناجي، لأن ظهور مثل هذه الكتابات ، إن وجدت، ستفتح أفقاً جديداً لإكتشاف تأملاته الأخيرة في التاريخ اليمني. هذا اليمني الذي حمله على ظهره طوال سنوات العمر في فترة حافلة بالهزات و الحوادث، و كان سلطان ناجي طوال حياته القصيرة يعيش في خضم تلك الأحداث، فهل ترك لنا كلمة قبل الوداع ؟!

سلطان ناجي :
التاريخ الذي اثقل كاهلي
هشام علي

تجليات النورس
إستئصالة